الفصل الأول

ما هـــــي الجغرافيـــــة؟

هذه الجغرافية[1]

من أبرز خصائص التفكير الجغرافي المعاصر الاهتمام الملتهب بهذا السؤال البسيط ما هي الجغرافية؟ وهذا في الواقع رد فعل طبيعي لحالة البلبلة الفكرية والخلط الذي يَرِينُ على معظم الأعمال الجغرافية، فكلنا يدرك تماما أن الجغرافية علم يدرس ظاهرات عديدة قد تختلف تماما؛ وبذا لا يصبح موضوعه متجانسا بل متنافرا يجمع الأضداد، كما أنه كذلك ولذلك يجمع مادته الخام من كل العلوم على الإطلاق، ولهذا وجد أصحاب الجغرافية أنفسهم متهمين أمام أصحاب العلوم الأخرى كلها باتهامات خطيرة حقا تهددهم في صميم كيانهم:

الاتهام الأول: كيف يمكن لعلم واحد أن يدرس في وقت واحد كل الظاهرات المتنافرة كالصخور والقبور، والأديان والسكان، والسلالات والعادات، والسياسة والفراسة والغابات والغزوات، إن العلم الذي يجمع بين كل ذلك لا يمكن أن يكون علما متجانسا لأن ظاهراته متنافرة متناقضة! بمعنى آخر: أين الوحدة الداخلية الأساسية في هذا العلم؟ إن لكل علم موضوعا معلوما فللاقتصاد ظاهراته الموحدة وللكيمياء مجالها الموحد, وهكذا.

الاتهام الثاني: إذا كان هذا العلم المزعوم يستمد مادته الخام بلا استثناء

---

(١) مجلة مرآة العلوم الاجتماعية – عدد ديسمبر ١٩٥٧م.

من العلوم الأولية المعنية، فما وجه الأصالة والجدة فيه؟ ما الذي يميزه عن تلك العلوم الأولية؟ بمعنى آخر: ما الذي يعطيه الاستقلال وتفرده كعلم؟ ومن هنا جاء الاتهام بكونه علم عالة على غيره، علم طفيلي متلصص.

إن العلم الصحيح تماما كالدولة السليمة يقوم على أساسين: الوحدة الداخلية بين أجزائه المختلفة، والاستقلال الخارجي عمن سواه.

هذه الاتهامات الموجهة إلى الجغرافية لم تأت من الخارج فحسب، بل إن كثيرا من الجغرافيين النابهين أعلنوا شكوكهم الخطيرة، بل إن جغرافيا كبيرا أعلن في خاتمة حياته أنه بعد طول المطاف والرحلة في المادة انتهى إلى أنه لم يجدها وقرر أن يبحث لنفسه عن عمل آخر!!

إزاء هذه الشكوك واليأس والسخط كان طبيعيا أن يطغى الاهتمام بالميثودولوجيا أي بفلسفة المادة والمسائل المنهجية على المادة نفسها، وقد كان للمدرسة الألمانية وعلى رأسها فيلسوف الجغرافية الأكبر ألفرد هنتر القَدَحُ المُعَلَّى في ميدان هذا الجدل المنهجي، فقد بدأ هذا الجدل منذ أوائل القرن الحالي وتوجه هنتر بكتابه المشهور عام ١٩٢٧ Die Georgaphie Ihre Geschiche, Ihr Wesen und Ihre Methoden وبه تحددت ماهية الجغرافية في تحديد جمع المدرسة الألمانية جمعاء على كلمة سواء بحيث أصبحت تمثل جبهة واحدة، وأصبح هذا العلم بمثابة إنجيل المادة.

والآن ما هي الجغرافية؟

١ – **قالوا:** إن الجغرافية هي علم الكوكب الأرضي وذلك لأنهم اتبعوا المعني الحرفي لكلمة Erkunde في الألمانية والمقطع Geo في جغرافية، ومعنى هذا أن تدرس الأرض ككل أو ككوكب أي من وجهة نظر فلكية. وهذا

خطأ واضح، ولا زال أثره باقيا في شكل الجغرافية الفلكية أو الرياضية المزعومة فهي ليست جغرافية ولكنها جزء من العلوم الفلكية وقد ألقى بها الجغرافيون منذ أمد طويل، والمهم أن اهتمامنا بالأرض في الجغرافية لا يأتي من ناحيتها الفلكية ككوكب وإلا لماذا لا نسمع جغرافية المريخ؟ إن الأرض تنفرد بين الكواكب بعنصر هو الذي يعطيها قيمتها للجغرافي: الحياة والإنسان، ولهذا فإن الجغرافية لا تدرس الأرض ككوكب ولكن تدرس فقط سطح الأرض الذي نعيش عليه في حدود ما "تخبر" في الغلاف الغازي من أعلى وفي أعماق الأرض من أسفل، وهكذا نجد أن المدلول الحرفي لكلمة جغرافية هو اسم على غير مسمى.

٢ – **قالوا أيضا:** إن الجغرافية هي علم وصف الأرض، ويكفي أن نذكر كلمة الجغرافية الوصفية ولكن الوصف ليس بعلم، فهو يرتد بالجغرافية إلى جغرافية الرحلات والطبوغرافيا أو جغرافية الرءوس والخلجان بما فيها من غرائب الأقطار، ولو أن الوصف أساس لكل علم لأنه يقدم المادة الخام إلا أنه وحده لا يكفي لأنه سطحي أجوف غير تعليلي تحليلي، ولا يعطي وحدة داخلية للظاهرات المختلفة كما أنه يدعو إلى الذاكرة لا إلى العقل.

٣ – قالوا: إن الجغرافية هي علم العلاقات أي العلاقة بين البيئة والإنسان، وهذا تعريف أخطر من سابقيه، لقد حاول كثير من الجغرافيين طوال تاريخ فهم العلاقات المركبة التي تقوم بين الظاهرات المختلفة التي يدرسونها في المكان الواحد، العلاقات المركبة بين النباتات والفواكه والحيوان والمناخ والسكان والصخور والرياح.. إلخ، والواقع أنه كان لا محيص للجغرافيا منذ أن اتخذت مبدأ النسبية العلمية أساسا من أن تهتم بالعلاقات السببية التي تقوم بين

ظاهراتها المختلفة، وحين ظهرت اتجاهاتنا إلى طرد الإنسان من الجغرافية اشتد الإقبال على فكرة العلاقات؛ لأنها الضمان الوحيد لإعادة الإنسان إلى حظيرة الجغرافية. وقد بدأ هذا الاتجاه والتوجيه على يد راتزل وإن لم يعرف هو الجغرافية بعلم العلاقات، واستمر التيار جارفا على يد من تبعوه حتى جاء باروز بتعريف الإيكولوجيا البشرية وقبله فلير وغيره، والغريب أن الاهتمام بالعلاقات في ألمانيا مهد الجغرافيا عامة ومهد هذا التوجيه خاصة ولم يطل إلا لبضعة عقود، انقرض بعدها تماما في كتابات الألمان المنهجية، هذا بينما انتشر التعريف خارج ألمانيا انتشارا هائلا, وظل حتى وقت قريب جدا في الجامعات, ولا زال متفشيا في المدارس الثانوية التي تعتبر معقلا حقيقيا لتعريف الجغرافيا كعلم العلاقات بين البيئة والإنسان، ولكن أثبتت المدرسة الألمانية فساد هذا التعريف، وإن يكن الاعتراض ليس على دراسة العلاقات في الجغرافية، ولكن على اعتبار هذه العلاقات وحدها موضوع العلم، ويمكن تلخيص نقد تعريف علم العلاقات في أربع:

أ – يخلق هذا المذهب بطبيعته تعارضا لا مفر منه بين البيئة والإنسان، فإذا اعتبرنا البيئة الطبيعية هي العامل الجغرافي كما قيل فإن الجغرافية تصبح تأثير هذا العالم على الإنسان – أي تصبح جغرافية التأثيرات وجغرافية الضبط التي تتألف من سبب ونتيجة، من فعل ورد فعل، ضوابط طبيعية واستجابات بشرية, مثال: البيئة جبلية إذن الحرية والاستقلال أساس التنظيم السياسي. البيئة بحرية إذن الديمقراطية أساس الحياة السياسية.. وهكذا.

ومعنى هذا أننا نبدأ بفكرة قبلية من الحتم البيئي الساذج والقدرية الميكانيكية لأن البدء من اعتبار العوامل الطبيعية لا يمكن إلا أن يؤدي إلى

احتمالات فقط أما التقرير النهائي فمتروك أخيرا للإنسان، وعلى هذا فالطريق السوي هو العكس: أن نتخذ نقطة الابتداء من الظاهرات البشرية نفسها فنصنفها ونتتبعها إلى جذورها الجغرافية، فهذا أدنى إلى أن نتعرف على كل العوامل التي تدخل في العلاقة وتقلل من خطر أن ننسب تأثيرا حتميا غير موجود حقا إلى العوامل البيئية.

ولهذا بعد أن كنا نسمع عن تلاؤم الإنسان للبيئة سمعنا عن ملاءمة الإنسان لبيئته وظهرت مدرسة الإمكانية محل الحتم. ولكن لا ننسى في خِضَمِّ التعارض بينهما أن كلا منها مدرسة إيكولوجية، وأنه سواء أخذنا بالأولى أو الثانية فإن علما يدرس العلاقات إنما يأمر طالبه بالبحث عن مثل تلك العلاقات وإيجادها؛ لأن النجاح هنا هو في إبراز تلاؤم بيئي لا نفيه! وهذا يستلب الطالب موضوعيته وعدم تحيزه ويقوده به إلى الدوجماطيقية، وعلى العموم فإن الجغرافية كعلم العلاقات لا يمكن إلا أن تلقى إلى الغموض بعنصر النسبية الذي هو أساس في فكرة السببية العلمية، فإذا كان بعض غلاة الحتم قد أبرزوا هذا الخطر فإن رد الفعل بين بعض غلاة الحرية كاد يؤدي إلى خطر أشد وأنكى وهو نكران السببية العلمية بإنكار أي فاعلية للبيئة الطبيعية، والغريب أن منهج البيئات للصف الأول الثانوي يوجه المدرس إلى دراسة الصراع بين البيئة والإنسان!! ولكن لماذا الصراع؟! إذ ينبغي ألا نخاطب التلاميذ عن البيئة كفاعل والإنسان كمفعول به أو العكس – إنما هما مضاف ومضاف إليه!!

ب – إذا كانت الجغرافية هي علم العلاقات والإيكولوجيا البشرية فإنها منطقيا لا تهتم بأي من الظاهرات الطبيعية أو البشرية إلا في مدى علاقاتها بعضها ببعض، وحيث إن الجغرافية البشرية هي بالضرورة مشبعة بالعوامل

الطبيعية فهي تحقق هذا الشرط؛ ولذا تستقر في صميم الجغرافية. أما الجغرافية الطبيعية فهي في حد ذاتها ليس دراسة علاقات ولا تتعرض بالضرورة للإنسان وارتباطه بها. ولذا فليس هناك ما يفرض على الجغرافية منطقيا دراستها. بمعنى آخر تصبح الجغرافية هي الجغرافية البشرية، بينما تخرج الجغرافية الطبيعية طريدة من نطاق علم الجغرافية، فالجغرافية إذن هي بشرية على الإطلاق، وهذا الانتهاء المنطقي وصل إليه وعبر عنه بكل وضوح وقوة مجموعة من الجغرافيين اليابانيين الذين أعلنوا أن الجغرافية الطبيعية لم تعد جزءً من الجغرافية وأن مكانها في العلوم الأخرى, وأن ما يتبقى للجغرافية هو على الإطلاق الجغرافية البشرية، ويعلق البعض على هذا بأننا نريد أن نأخذ الـ Geo من الجغرافية! فهل هناك من هو مستعد لتحمل تبعة إلقاء الجغرافية الطبيعية كلية خارج الحظيرة!! إن استبعاد الجغرافية الطبيعية لا يمكن أن يكون دعوة جدية لأن دراسة تلاؤم الإنسان والبيئة تتطلب معرفة البيئة، وأي جغرافية بشرية لا تقوم على أساس صلب من الجغرافية الطبيعية لا يمكن إلا أن تكون قائمة على الرمال. وهل قبل ظهور الإنسان من ناحية، وفي المناطق الخالية تماما من السكان من ناحية أخرى، أليس هناك "جغرافية"؟ ألم يكن للأمازون جغرافية بحتة قبل الكشف؟ كيف نعلق وجود علم "أشياء" على وجود أو عدم وجود الإنسان، أفي البدء كانت الجغرافية أم التاريخ؟..

جـ - هل يمنح تعريف العلاقات العلم وحدته التي لا غنى عنها؟ إن التنظيم الوحيد الممكن لمادة علم العلاقات هو تصنيف مجموعات العلاقات وتأثيرات البيئة على الإنسان إلى فئات بحسب كل واحد من العوامل الطبيعية فيكون هناك فصل لتأثير المناخ على الإنسان وآخر للتضاريس.. وهكذا ولكن

في كل من هذه الفئات لا نجد أساسا لتنظيم موحد لكل أنواع العلاقات المختلفة ولذا لا يمكن لهذه الفئات أن تتميز بوحدة فيما بينها كذلك يتمخض هذا التنظيم عن موسوعات ضخمة أشبه بالكاتالوجات وأخيرا يؤدي إلى تشتت العلم. فمثلا نجد في كتاب "البيئة" المقرر على الفرقة الأولى الثانوية أو في أي كتاب مشابه إما أن الشيء الوحيد الذي يربطه بالبيئات هو العنوان الخارجي وإما مادتها, فبينما نجد الكتاب يتكلم عن بيئة الجبال (أساس طبيعي) نجده يتعرض للبيئة الزراعية (أساس اقتصادي حرفي) ثم عن بيئة البحر المتوسط (مجرد منطقة معينة) فأين الوحدة في كل هذا الخلط؟!

د – هل يمنح التعريف الإيكولوجي للجغرافية استقلالها وكيانها المستقل كعلم منفرد متمايز عن بقية العلوم؟ إن كل العلوم الأولية التي تدرس الإنسان لابد أن تقيم علاقتها مع طبيعة سطح الأرض إن أرادت أن تتفهم الأحوال الاجتماعية المختلفة للمناطق والأماكن المختلفة – فللتاريخ بل عليه أن يدرس العوامل الطبيعية لتفهم الحوادث المنفردة كخط سير حملة أو التغيرات الإقليمية في معاهدة صلح.. أو لتفهم مجرى التاريخ عامة. ولا يمكن لعالم الاجتماع أن يتجاهل البيئة التي يقع فيها المجتمع. فدراسة العلاقات الإيكولوجية لا يمكن أن تكون حكرا لعلم.

وهذه النظرة الإيكولوجية إلى الجغرافيا هي التي أدت إلى اعتبارها في الدوائر العلمية الخارجية طفيلية فضولية لا كيان لها أو استقلال لها.

والخلاصة أن علما مستقلا لا يمكن أبدا أن يتخذ موضوعه مجرد العلاقات السببية، ولكن ينبغي أن يضع نفسه نصب دائرة معينة من الحقائق يحددها أولا ثم يسعى بعدها وراء العلاقات السببية، ولا شك أن فكرة الجغرافية

كدراسة للعلاقات قد فشلت في أن تمد المادة بأهداف ملموسة كافية أي بظاهرات محسوسة لدراستها أو بنظام أو منهج خاص متميز، والسبب في هذا حقيقة كبرى أهملت تماما؛ فكان الخلط والبلبلة، وهي أن الإيكولوجيا ليست علما ولكنها منهج بحث علمي.

٤ – هل الجغرافية بعد ذلك هو علم التوزيعات كما قالوا؟ اقترح البعض أن الجغرافية هي أساس علم التوزيعات – علم هدفه توزيع الظاهرات المختلفة منفصلة أو متصلة على سطح الأرض، ولكن لهذا التعريف مثالب ثلاثة:

أ – إذا كانت الجغرافية علم التوزيعات فما حدودها، إن كل شيء على سطح كوكبنا يقع بالضرورة في مكان! أي أن لكل شيء توزيعا! وهكذا تصبح الجغرافية بحرا لا ساحل له، من دخله كان مفقودا ومن خرج منه كان مولودا! إذ تشمل كل ما على الأرض وكل ما تحت الشمس, ويصبح لا مانع من أن ندرس في الجغرافيا توزيع المدارس الأدبية أو توزيع حقوق المصير في العالم أو توزيع الجوارب النايلون!! بمعنى آخر هذا التعريف لا يخبرنا أي الظاهرات يمكن أن تعتبر ذات مغزى جغرافي أي أنه فاقد للأساس الانتخابي للظاهرات, وهو بذلك جدير بأن يخرجنا عن نطاق الجغرافية. فهذا التعريف أكثر من جامع وأقل من مانع، وفي ظله تصبح الجغرافية علم سطحي لا يمكن أن يكون محترما لأنه يستهدف معرفة كل شيء عن كل شيء.

ب – لا يعطي هذا التعريف الجغرافية وحدتها فالتوزيعات تجمع بين ظاهرات متنافرة كل التنافر بين صخور ومياه وهواء وتيارات ومحاصيل وعادات ولغات وأجناس.. والتوزيع في حد ذاته لا يمدنا برباط مشترك من الاهتمام، وفي ظل هذا التعريف يفتح الباب على مصراعيه لاتهام الجغرافية بأنها مجرد علم وأنها ليست أكثر من أجزاء من العلوم الأخرى.

جـ - لا يعطي هذا التعريف للمادة استقلالها العلمي لأن التوزيع ليس حكرا للجغرافية بل هو خاصية للأشياء ولذا ينبغي أن تدخله العلوم الأولية في دائرة بحثها وعرضها فعالم الحشرات أو النبات أو الجيولوجيا أو الاجتماع أو هاوي الطوابع أو العملة في حاجة إلى التوزيع إذ من الممكن توزيع ظاهراته على خريطة للعالم أو لجزء منه، وذلك حتى يصل إلى فهم أكمل وأفضل لقوانينها العامة، فالعلوم الأولية وإن تكن قياسية إلا أنها تحتاج إلى استعمال الطريقة التوزيعية الاستقرائية لسبب منطقي بسيط: وهو أنه لابد للقياس من الاستقراء. فالعلماء الأصوليون إذا وزعوا ظاهراتهم مكانيا لا يصبحون بذلك جغرافيين، ودعوى التوزيعيين من احتكار دراسة التوزيعات تناظر تماما دعوى الإيكولوجيين من احتكار دراسة العلاقات، فلا العلاقات ولا التوزيع بحكرٍ للجغرافية، بل كلاهما مشاع بين كل العلوم، لا ولا يمكن لأي منهما أن يمنح الجغرافية كيانا مستقلا، وكلاهما ببساطة منهج للبحث العلمي، والتوزيع والإحصاء صنوان: فالجدول الإحصائي خريطة رقمية، والخريطة التوزيعية جدول مرسوم! وليست الخريطة التوزيعية حكرا للجغرافي أكثر من الإحصاء للإحصائي.

ما هي الجغرافية إذن؟

بعد رحلة طويلة مضطربة عادة سفينة العلم على أعقابها لتستقر على تعريف كلاسيكي قديم للجغرافية – علم الكورولوجيا أو الكوروجرافيا كما قال سترابو، والكلمة مشتقة من Chore الإغريقية أي منطقة أو إقليم، ومن حسن الحظ أن هذه الكلمة لا تعتبر غريبة على اللغة العربية بعد أن دخلتها عن طريق الفارسية على الأرجح وتعربت في صورة كلمة "كورة"، وكانت الكورة كما هو

معروف أساس للتقسيم الإداري لمصر في كثير من فترات العصور الوسطى، ولا زالت تستعمل في بعض أجزاء العالم العربي حتى اليوم، وقد بعث التعريف الكورولوجي هذا هنتر، ومعنى هذا أن كل قصة الجغرافية تتلخص في كلمة واحدة عود على بدء! ومعنى التعريف الكورولوجي أن عمل الجغرافي هو أن يطالع سطح الأرض المتفارق المختلف بطبيعته من رقعة إلى أخرى، فيستشف منها ويتعرف فيها على كل واحدة تفارقية ذات شخصية متميزة عن سواها فيحددها ويحدد محتوياتها ومقومات تلك الشخصية وأسبابها، والإقليم منطقة متجانسة داخليا متنافرة خارجيا، فهو يضمن الوحدة الداخلية للعلم، فلم يعنيهم عدم تجانس الظاهرات المختلفة العديدة، سواء الطبيعية أو البشرية، التي تملأ "الإقليم"، وهو يضمن استقلال العلم لأنه ليس هناك علم آخر يختص بدراسة الإقليم وتباين الأرض في أقاليم. والكورولوجيا بهذا تناظر التاريخ فوحدة الجغرافية الإقليمية ووحدة التاريخ الفترة كلاهما يستعيد حقائقه اللامتجانسة من العلوم المختلفة ولكن يوحد بينها ويمنحها استقلالها في هذا الإطار المكاني أو الزماني. فلا تنساح الجغرافية في إعطاء الشخصية للإقليم فإذا كانت بشرية ننتخب تلك التي لها علاقة إيكولوجية ثابتة بالأساس الطبيعي، ومعنى ذلك أن الكورولوجيا تستوعب وتستخدم العلاقات الإيكولوجية كمقياس لتحديد المغزى الجغرافي للظاهرة البشرية التي تعرض لنا، فمثلا تعدد الزوجات حقيقة اجتماعية إلا أن هذا التعدد قد يختلف من منطقة إلى أخرى، فهل لهذا الاختلاف قيمة جغرافية؟ وهل ندرسه كأحد العناصر والمقومات التي تساهم في تمييز المنطقة عما سواها؟ إذا لم تكن الفوارق في نسبة تعدد الزوجات راجعة إلى أسباب وأصول جغرافية قائمة في البيئة الطبيعية، ولكنها مجرد فوارق عشوائية

بالصدفة، فليس لها أي قيمة جغرافية وتنبذ من عناصر دراسة الإقليم. ولكن لابد أن نبحث العلاقة الإيكولوجية أولا ولنضرب مثلا: في وسط الدلتا ترتفع النسبة في الشمال، في مراكز (البراري)، ويمكننا بالاستقصاء والاستفتاء أن ندرك تماما أن السبب في ذلك هو الحاجة إلى الأيدي العاملة لاستصلاح الأرض، وأن القيمة الاقتصادية للأسرة تكاد تتناسب تناسبا طرديا مع حجمها، ولذا يلجأون بوعي هادف إلى تعدد الزوجات، هنا تقوم للظاهرة الاجتماعية دلالة جغرافية، فهي تعبير بشري عن قوى طبيعية كامنة، **وكثيرا ما تكون الطبيعة خرساء، ولكنها تتكلم خلال الإنسان وعلى لسانه.**

هكذا تتحدد العناصر التي تدرس في الإقليم، ولا شك أن تركيب العناصر المختلفة على بعضها البعض لتكوِّن الإقليم عملية صعبة معقدة, ولكنها لا تمنع من أن الإقليم هو قلب الجغرافيا، ويجب أن يسود في جميع مراحلها وفروعها، فمثلا في الجغرافية الاجتماعية لا ندرس العلاقة المطلقة بين البيئة والإنسان فهذا علم الاجتماع، وإنما نسعى إلى تمييز أنماط اجتماعية متمايزة محددة في إطارات إقليمية، أي نسعى إلى استجلاء وتحديد الشخصيات الاجتماعية إقليميا، بشرط أن نرد مقومات هذه الشخصية الاجتماعية إلى أصول بيئية مباشرة أو غير مباشرة فمن منها لا ارتباط إيكولوجي له استبعدناه من هذه الشخصية باعتبارها غير ذات موضوع أو دلالة جغرافية.